

اجتهادات لِمَ يبنى شيوعيون الرأسمالية؟

حزب شيوعى يقودُ بلدًا يقومُ اقتصاده على مزيج من رأسمالية سلطة الدولة والرأسمالية الخاصة. حالةٌ تُحيرُ الكثير ممن يتابعون تجربة الصين الناجحة. ويُظنُّ أن الحزب الشيوعى، الذى يحكم بلدًا لا توجدُ به شيوعية إلا فى اسم هذا الحزب وبعضٍ من خطابه السياسى، موجودٌ حتى الآن فقط لأنه يُحكم قبضته على المجتمع والسلطة.

غير أن هذه ليست أكثر من صورة ذهنية. الحزب الشيوعى الصينى شيوعى فعلاً، بل أكثر شيوعية مما كان عليه حتى رحيل زعيمه التاريخى ماوتسى تونج. والتحول الذى أحدثته القيادة الرشيدة التى خلفته، وعلى رأسها الزعيم دنج سياو بينج، كان فى أحد أبعاده عودةً إلى الماركسية التى أسىء تأويلها بشدة فى عصر ماو. وكان أكثر ما أسىء تأويله فيها مراحل التطور، إذ رأى ماو أن المرحلة الرأسمالية ليست ضرورية، وأن فى

الإمكان تجاوزها أو «حرقها»، والانتقال مباشرةً من وضع شبه إقطاعي إلى الاشتراكية. ولهذا أفتى بأن البروليتاريا الصناعية ليست لازمةً في هذا الانتقال، الذي تصور أنه سيستقيم اعتمادًا على الفلاحين الفقراء، مخالفًا الماركسية التي قامت على أن وصول تناقضات الرأسمالية إلى ذروتها شرطٌ للتحويل إلى الاشتراكية. ولهذا لم يتصور ماركس أبدًا هذا التحويل في روسيا أو الصين، بل انصب تفكيره على دولٍ مثل إنجلترا وألمانيا وفرنسا.

لقد تخيل ماو وأتباعه أن الرأسمالية، التي أمضى ماركس سنواتٍ طويلةً في دراستها، لا تعنى شيئًا في فلسفته الاجتماعية. ولهذا أهال الحزب الشيوعي في تلك المرحلة التراب على أحد أهم ما عُنى به ماركس الذي وضع مؤلفًا موسوعيًا في رأس المال كان فتحًا في زمنه، ومازالت بعض أفكاره الأساسية مفيدةً في فهم آليات عمل النظام الرأسمالي العالمي، برغم تقادم بعض جوانبه.

صحَّ الحزب الشيوعي الصيني في عهد سياتو بينج هذا الوضع الخطأ، ومضى قدمًا في بناء رأسماليةٍ عامة

وخاصة، لتوفير الأساس اللازم لتحول اشتراكي في وقتٍ ما. وهذا هو الفهم الصحيح للماركسية بغض النظر عما إذا كان هدفُ التحول الاشتراكي مازال قائمًا حتى اليوم، أم تاه في غمار معارك الصين الكبيرة.